صالح بن مسرح الناسك الثائر

د. محمد صياح مسند العيسى
قسم التاريخ – جامعة آل البيت
المفرق – الأردن

ملخص الدراسة:

حملت فرقة الخوارج لواء التمرد على السلطة السياسية منذ تكوينهم كايدولوجيا سياسية في عهد علي بن أبي طالب، وقد ظهرت العديد من ثورات الخوارج إبان العصر الراشدي والعصر الأموي ولكن ثورة من هذه الثورات تميزت عن غيرها ليس بما حملته من مباديء إصلاحية في النظام السياسي والاقتصادي والفكر الديني بل بشخصية قائدها الثائر وهو صالح بن مسرح. من خلال تتبعنا لتاريخ هذا الثائر نجد أن شخصيته ابعد ما تكون عن قادة ثورات الخوارج من خلال دخوله في دائرة العلم والتعليم والتنسك الديني، مما يجعلنا نستنتج أن الظلم الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الأموية وولاتها ساهم في خروج هذا الناسك من عزلته فضلا عن الليبرالية السياسية التي أسسها معاوية، والتي أسماها مواكلة حسنة ومشاربة جميلة ساعدت إلى حد ما في السماح لظهور ايديولوجيا معارضة لايديولوجيا السلطة كالخوارج والقدرية والجهمية وغيرها. نجد هنا أن هذا الناسك خط طريقا نظريا حوله إلى ممارسة عملية ثورية، وقد ساعده في ذلك الكاريزمة الجاذبة لأصحابه، مما جعلهم يقدمون على الموت ويفدونه بحياتهم رغم المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم. وكانت ثورة صالح قد تعدت الثورة الفكرية الدينية إلى ثورة اجتماعية واقتصادية ضد ظلم السلطة الأموية في عصرهم.

مقدمة:

تعتبر فرقة الخوارج من أكثر الفرق التي أظهرت نزعة التمرد على السلطة في تاريخ الإسلام. فقد واكبت موقفها المعارض النظري بالخروج وحمل السلاح عمليا، سواء في العصر الراشدي أو العصر الأموي أو العصر العباسي. بل إن البعض[1] يرى أن نزعة التمرد لدى الخوارج ابتدأت منذ عصر مبكر، وتحديدا منذ عصر الرسالة. ومن الأمثلة الدالة على ذلك قصة حرقوص بن زهير، عندما " أتى رجل اسمه حرقوص بن زهير ويكنى بذي الخويصرة التميمي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم غنائم هوازن يوم حنين فقال: " اعدل يا رسول الله. فقال: ويحك ومن عدل إذا لم أعدل"[2].

وإذا تجاوزنا هذه الحادثة، وتجاوزنا معها حادثة التحكيم[3] المشهورة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان أو بالأحرى بين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص، أقول إذا تجاوزناها كحوادث تاريخية استند لها منظرو الخوارج لصياغة فكرهم وتبرير خروجهم، فإننا لا نستطيع تجاوز بنية فكر الخوارج، وهي الجانب الأيديولوجي في عقيدتهم الفكرية.

إن هذا الجانب هو رأيهم بالإمامة، وهو ما سبب لهم التعرض لملاحقة السلطة السياسية على مر العصور الإسلامية.

لا بد لنا أن نستعرض بشكل موجز أهم المصادر التاريخية حول الخوارج كتاريخ وفكر فإن إشكالية خضوع السياسة للفكر الديني يجعل الكلام عن المصادر التاريخية وتحليلها صعبا من خلال التداخل بين الأيدولوجيا(الفكر الاعتقادي) والحدث التاريخي المجرد مع الاعتراف بإشكالية وجوده ولكننا هنا سنعترف به لأغراض منهجية ليس إلا.

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق صدقي جميل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٣٤./ ابن حزم، علي بن احمد بن سعيد، الفصل في الملل والاهواء والنحل، تحقيق احمد شمس الدين، ط٢، ج٢، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩، ص١٣٤.

(٢) ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة، تحقيق مكتب البحوث في الدار، ج١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣، ص٣٤١.

(٣) ان التحكيم هو الاساس الذي انطلق منه اهل النهروان في مخالفتهم للامام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، واما من بعدهم ممن خرج فواضح من خلال عباراتهم واشعارهم وانكارهم للتحكيم ورفضه، ولذلك يسمى كل هؤلاء بالمحكمة. انظر الأشعري، أبو الحسن، المقالات واختلاف المصلين، ج١، تحقيق هلموت ريتر، ط٣، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٠٦.

إن الطبري هو مؤرخ جامع يحاول نقل كل ما يتوارد إليه من متعلقات الحدث التاريخي ويميل إلى إيراد النصوص عن طريق إسناد شفوي ويبدع في بداية كتابته عن القرن الأول الإسلامي مما يجعل رواياته تلك متسمة بالوضوح.

أما ما يتعلق بابن الأثير في الكامل في التاريخ فهو يعد مكملا للطبري وقد حاول كتابة الخبر التاريخي دون تزيين وتنميق كما يأتي نقده السياسي بشكل عفوي بين السطور ولكنه لا ينافس الطبري في موضوعنا بسبب موضوع الاقتراب التاريخي من الحدث فالطبري زمنيا أقرب لموضوعنا التاريخي مما يجعلنا نفضل روايات الطبري نسبيا فيما يتعلق بالمادة التاريخية أما الحكم الشخصي فهي مسألة أخرى ليس لها علاقة مباشرة بالعصر الذي عاشه المؤرخ.

يعتبر من أهم المصادر التي تكلمت عن الخوارج كتاب أنساب الأشراف للبلاذري الذي أطنب في ذكر المادة التاريخية متوخيا عملية الإسناد الجمعي في رواياته. وسبب علو كعبه عن الطبري في هذا المجال اعتماد الطبري بجزء كبير من رواياته على أبي مخنف، ويحاول الطبري تبرير ذلك بقوله: "فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين يستنكره قارؤه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا، وأنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا"[1].

ومن أهم كتاب الفرق الأشعري في كتابه مقالات الإسلاميين، ومما يذكر في أسلوبه أنه يحاول أن يبتعد عن مسؤولية ذكر الخبر التاريخي فيستخدم أسلوب الحكاية التي نقلت له عن طريق أحدهم في حين أن الشهرستاني تتشابه معلوماته كثيرا مع كتاب المقالات.

الخوارج وأيديولوجية الإمامة

استمر الخوارج في التمرد على السلطة في العصر الأموي والعصر العباسي، وقد كان معظم الخوارج من عرب البادية وعرفوا بالتعصب والحماسة والاندفاع السريع في آرائهم، وقد عرف عنهم تشددهم في العبادة ويروي عبد الله بن العباس حينما

---

(1) الطبري، ج1، ص13.

ناقشهم رأى منهم جباه قرحة من طول السجود، وأيدي كثنفات الإبل عليها قمص مرحضة (أي طاهرة)[1].

يذكر زياد بن أبيه في مواجهته للخوارج: "العجب من الخوارج أنك تجدهم من أهل البيوت والشرف وذوي الغناء وحملة القرآن وأهل الزهد، وما أشكل علي أمر نظرت فيه غير أمرهم"[2]. من هنا نجد أن السمعة المنتشرة عن الخوارج أنهم شديدو الالتزام بالطقوس الدينية ولكن الحرب الشعواء التي شنت عليهم كانت بسبب الجانب الأيدولوجي الذي شكل خطورة على السلطة السياسية.

ينسب للخوارج أنهم أول من أجاز أن يكون إمام المسلمين من غير قريش[3]، وفي هذا يرون أن الخلافة من حق كل مسلم مادام كفؤا لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي[4]، وأما رأيهم في إمامة خلفاء العصر الراشدي فالخوارج بأسرهم "يثبتون إمامة أبي بكر وعمر وينكرون إمامة عثمان رضوان الله عليهم في وقت الأحداث التي نقم عليه من أجلها ويقولون بإمامة علي قبل أن يحكم وينكرون إمامته لما أجاب إلى التحكيم ويكفرون معاوية وعمرو بن العاص وأبا موسى الأشعري، ويرون أن الإمامة في قريش وغيرهم إذا كان القائم بها مستحقاً لذلك ولا يرون إمامة الجائر"[5].

حتى إن بعض فرق الخوارج رأت بعدم الحاجة إلى إمام، وهي فرقة النجدات الخارجية التي ترى: "أنهم لا يحتاجون إلى إمام وإنما عليهم أن يعلموا كتاب الله سبحانه فيما بينهم"[6].

---

(١) المبرد، محمد بن يزيد أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٤٣.

(٢) البلاذري، احمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج٣، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦، ص٢١٢.

(٣) الأشعري، أبو الحسن، المقالات واختلاف المصلين، ج١، تحقيق هلموت ريتر، ط٣، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٠٤/ الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق صدقي جميل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٨.

(٤) شرف، محمد جلال، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠، ص٧٥.

(٥) الأشعري، المقالات، ج١، ص٣١.

(٦) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢.

ويطرحها الخوارج بصراحة معبرين عن موقفهم من الإمامة من قريش فيرون أنه "إذا اجتمع قرشي ونبطي قدمنا النبطي، إذ هو أقل عددا، وأضعف وسيلة، فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة"[1].

من خلال استعراض آراء الخوارج في الإمامة يتضح مدى خطورة الجانب الأيديولوجي فيها. وهذا الجانب هو ما كان يصيب السلطة بالذعر، ويجعل عملها الدؤوب استئصال هذه الفرقة من المجتمع الإسلامي. فتم استخدام أعلى درجات العنف والقسوة معهم حتى إن ولاة بني أمية قتلت العديد منهم لمجرد الاشتباه.

كانت هذه الآراء التي ذكرناها يتفق عليها الخوارج بشكل إجمالي، ولكنهم تفرقوا بعد ذلك إلى العديد من الفرق والمذاهب، بسبب كثرة الاختلافات بينهم، وتحيز كل فرقة لآرائها، حتى صاروا مذاهب وجماعات متباينة. وما سنحاول استعراضه هنا فرقة الشبيبية وهي من فرق الخوارج التي تمردت في العصر الأموي وانفردت بعدة آراء داخل الإطار الفكري للخوارج.

موقف السلطة الأموية من الخوارج:

عانت السلطة الأموية من ثورات الخوارج المتتابعة، وكأنهم يسلمون شعلة الثورة والتمرد من قائد إلى آخر. ولا يخطر ببال البعض بأن التمرد في العصر الأموي كان من الدروب السهلة وهدف للشهرة والاستعراض، بل على العكس من ذلك، فالثائرون مقدمون على الموت باختيارهم ورغبتهم. ولذلك قام ولاة بني أمية باستخدام أفظع الوسائل للقضاء عليهم، فتتبعت السلطة رجال الخوارج وحكمت عليهم بالقتل لمجرد الشبهة.

ولم يكن حظ النساء بأقل من حظ الرجال في التعذيب والقتل، ولكن ما يسترعي الانتباه هنا أن هؤلاء النساء واجهن الموت بقلوب لا تخشاه كما حدث من أم علقمة الخارجية التي كانت تقاتل مع جيش الخوارج " لما أسرت أم علقمة الخارجية، وأتى بها الحجاج، وكان قد وقع بينها وبين الحجاج حروب شديدة، فقال لها: يا عدوة الله

---

(١) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق صدقي جميل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٨.

تخبطين الناس بسيفك خبط العشواء، فقالت: ويحك أعليّ ترعد وتبرق، لقد خفت الله خوفاً صيرك في عيني أصغر من ذباب، وكانت منكسة فقال: ارفعي رأسك، وانظري إليّ، قالت: أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فقال، يا أهل الشام ما تقولون في دمها ؟ فقالوا: جميعاً حلال اقتلها أيها الأمير، فقالت: ويحك لقد كان جلساء أخيك فرعون خيراً من جلسائك، حيث استشارهم في موسى وهارون، فقالوا: أرجه وأخاه وهؤلاء الفسقة أمروا بقتلي فأمر بها فقتلت"[1].

وهناك امرأة أخرى وقفت نفس الموقف أمام الحجاج الذي سألها:" قال الحجاج لامرأة من الخوارج: اقرئي شيئاً من القرآن. فقالتْ: " إذا جاء نَصْر الله والفتْحُ، ورأيتَ الناسَ " يخرجونَ فقَالَ: ويحك يدخُلُون. قالتْ: قد دَخَلُوا، وأنتَ تُخْرِجُهم"[2].

وأخرى قال لها الحجاج:" الحجاجُ لأخرى: لأحصدنكُمْ حصْداً. قالتْ: أنتَ تحصُدُ، والله يزرَعُ، فانظُرْ أينَ قُدْرةُ المخلُوقِ من قدرةِ الخالق؟"[3].

صالح بن مسرح الناسك:

من لا يعرف شدة الحجاج بن يوسف الثقفي في العصر الأموي عندما كان واليا على العراق؟. وقد أخذ على عاتقه القضاء على جميع حركات التمرد ضد السلطة الأموية. ومن ضمن هذه الحركات كانت الخوارج.

ضمن هذه الظروف الصعبة وجدت شخصية خلافية لدى المؤرخين والباحثين، هي شخصية صالح بن مسرح التميمي، ولم يكن صالحا متمردا أو رجلا راغبا في السلطة، بل كان ناسكا، كثير العبادة، زاهدا، فقيها[4].

---

(١) العاملي، بهاء الدين بن الحسين، الكشكول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٤٩./ الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين محمد بن المفضل ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج٢، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت، ص٣٨٥.

(٢) الآبي، أبو سعيد منصور بن الحسين، نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠، ص٤٠٥.

(٣) الآبي، نثر الدر، ص٤٠٥.

(٤) ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى، ج٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص٧٣./ الآبي، محمد بن خليفة، إكمال الإكمال، ج٧،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٥٧./ الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد، سير أعلام النبلاء، ج٤، تحقيق شعيب أرناؤوط، حسين الأسد، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠، ص١٤٨./ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩، ص٥٠./ ابن

كان صالح بن مسرح أحد بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم[1]، ويعتبره بعض المؤرخين أميرا للصفرية (إحدى فرق الخوارج)[2]، حيث ظهرت الصفرية على مسرح الأحداث بصفة قوية في الثورة التي قادها صالح بن مسرح التميمي ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٦هـ[3]، في حين أن الشهرستاني يقول فيه:"ولم يبلغنا عنه أنه أحدث قولاً تميز به عن أصحابه"[4]

وكان مكانه في منطقة دارا والموصل يعمل في تدريس وتعليم أصحابه القرآن[5]، ولم يكن يمثل شخصية القائد الذي يرى أن الثورة المسلحة هي الحل الأنسب. ولكن ما شاهده من عمليات سفك الدماء، والظلم الاقتصادي الذي مارسته السلطة الأموية على الرعية ربما استفزه، وهذا كان واضحا في كتابه إلى أصحابه من الخوارج. ويطرح صالح في هذا الكتاب:" الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون اللهم إنا لا نعدل بك ولا نحفد إلا إليك ولا نعبد إلا إياك لك الخلق والأمر ومنك النفع والضر وإليك المصير، ونشهد أن محمداً (عليه الصلاة والسلام) عبدك الذي اصطفيته ورسولك الذي اخترته وارتضيته لتبليغ رسالاتك ونصيحة عبادك ونشهد أنه قد بلغ الرسالة ونصح للأمة ودعا إلى الحق وقام بالقسط ونصر الدين وجاهد

الأثير،علي بن محمد، الكامل في التاريخ، ج٢، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٧، ص٢٨٧./ الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج٢، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥، ص٢٦٩./ ابن تغري البردي، يوسف جمال الدين، النجوم الزاهرة، ج١، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٧./ الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام، ج٢، تحقيق عمر تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩، ص١٢٥./ ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص١٨./ ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق مصطفى فواز وحكمت فواز، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥، ص٢١٠./ القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٦، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦، ص٢٠.

(١) البلاذري، احمد بن يحيى، أنساب الأشراف، ج٣، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦، ص٢١٢

(٢) ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص١٦.

(٣) ابو خليل، شوقي، اطلس الفرق والمذاهب الإسلامية، ط٣،دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠، ص٢٢٢.

(٤) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق صدقي جميل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٨.

(٥) العصامي، عبد الملك بن حسين، النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٢، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، ص١٢٧.

المشركين حتى توفاه الله صلى الله عليه وسلم أوصيكم بتقوى الله والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وكثرة ذكر الموت وفراق الفاسقين وحب المؤمنين فإن الزهادة في الدنيا ترغب العبد فيما عند الله وتفرغ بدنه لطاعة الله وإن كثرة ذكر الموت يخيف العبد من ربه حتى يجأره إليه ويستكين له وإن فراق الفاسقين حق على المؤمنين قال الله في كتابه ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ وإن حب المؤمنين للسبب الذي ينال به كرامة الله ورحمته وجنته جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ألا أن من نعمة الله على المؤمنين أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم فعلمهم الكتاب والحكمة وزكاهم وطهرهم ووفقهم في دينهم وكان بالمؤمنين رؤفا رحيما حتى قبضه الله صلوات الله عليه، ثم ولي الأمر من بعده التقي الصديق على الرضا من المسلمين فاقتدى بهديه واستن بسنته حتى لحق بالله رحمه الله واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية فعمل بكتاب الله وأحيا سنة رسول الله ولم يحنق في الحق على جرته ولم يخف في الله لومة لائم حتى لحق به رحمة الله عليه وولي المسلمين من بعده عثمان فاستأثر بالفيء وعطل الحدود وجار في الحكم واستذل المؤمن وعزز المجرم فسار إليه المسلمون فقتلوه فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين وولي أمر الناس من بعده على بن أبى طالب فلم ينشب أن حكم في أمر الله الرجال وشك في أهل الضلال وركن وأدهن فنحن من علي وأشياعه براء فتيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحزبة وأئمة الضلال الظلمة وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء واللحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في العاقبة ولا تجزعوا من القتل في الله فإن القتل أيسر من الموت والموت نازل بكم غير ما ترجم الظنون فمفرق بينكم وبين أبائكم وأبنائكم وحلائلكم ودنياكم وإن اشتد لذلك كرهكم وجزعكم ألا فبيعوا الله أنفسكم طائعين وأموالكم تدخلوا الجنة آمنين وتعانقوا الحور العين جعلنا الله وإياكم من الشاكرين الذاكرين الذين يهدون بالحق وبه يعدلون"[1].

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، ص٥١./ الجوزي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج٢، ص٢٦٨.

إن الذي يطرحه صالح بن مسرح في كتابه، أقرب إلى محاولة لتبرير الخروج. ونجد هنا طرحا ليس غريبا على رجل عرف بزهده، وهو اختيار الموت لأنه الطريقة الوحيدة للقاء المؤمنين الذين استشهدوا قبل ذلك، وفرصة للتنعم بخيرات الجنة. من هنا فصالح بن مسرح كان يرى أن الخروج ضد السلطة الأموية هو جهاد في سبيل الله.

وهذا يبين وجهة نظر صالح بن مسرح بالسلطة الأموية في عصره وعدم قربها من مفهوم الحاكم العادل كتبرير للخروج عليها.

ويقوم صالح بطرح نماذج نموذجية للسلطة في الإسلام كالرسول ﷺ وصاحبيه أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وهم أمثلة يجب أن تحتذي بهم السلطة الأموية. في حين أن موقفه من عثمان رضي الله عنه يعكس النظرة العامة للخوارج مما يجعلنا نضعه في إطارهم الفكري وموقفهم السياسي.

وابتدأ صالح بمحاولة نقل هذا الفكر النظري إلى حيز التطبيق، فاغتنم فرصة تجمع الناس حوله لنسكه وزهده وعلمه، وقد أعلن عن موقفه الزاهد من الدنيا فقد كان يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنكار ما قد شاع في الناس وذاع، ويهون عليهم القتل في طلب ذلك، ويذم الدنيا ذما بالغا، ويصغر أمرها ويحقره[1]، ثم بدأ بتحريضهم على الخروج في قتال السلطة (الظالمة) فيقول لهم: "ما أدرى ما تنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلا غلوا وعتوا وتباعدا عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذي تريدون فيأتوكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون وفى أي وقت إن خرجنا نحن خارجون"[2].

يبدو أن صالحا لم يعجبه تقاعس أصحابه في قتال السلطة الأموية، مع أنهم يعيشون تحت ظلم الولاة الذين لم يتطاولوا على الرعية فقط بل تطاولوا على الله تعالى. ولكن يتضح لنا من خلال قوله أن عدد أصحابه قليل، لذلك فهو يحثهم على جلب المزيد من الرجال لضمان نجاح الثورة.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص١٨.
(٢) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٥، ص٥٢.

ولم يطل انتظار صالح، فقد شاءت الأقدار أن يكون في زمنه شبيب بين يزيد، وهو أحد جبابرة عصره، وكان على المذهب الخارجي. كان شبيب يتميز بقوته وفروسيته وليس غريبا أن تحاك حول شبيب مجموعة من الأساطير نظرا لتميزه في قوته في عصره حتى إن ولادة شبيب تصلنا في رواية من الصعب تصديقها، إذ ترى أن "يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن قيس ين شراحيل بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة غزا الروم فابتاع جارية من السبي ووقع عليها فولدت له شبيب بن يزيد في سنة خمسة وعشرين في يوم النحر، فقال أبوه:

ولد في اليوم الذي تهراق فيه الدماء وأحسبه سيكون صاحب دماء، وكان اسم أم شبيب جميرة وقيل جهيزة"[1]. وقد أصبح شبيب بن يزيد موضوعا للشعراء ورواة القصص فهاهو الشاعر أبو عمرٍو الشّيبانيُّ ينشد لرجلٍ من الخوارج يصف صيحة شبيبِ بن يزيد بن نُعَيم، قال أبو عبيدة وأبو الحَسَن: كان شبيبٌ يصيح في جنَبات الجيشِ إذا أتاه، فلا يَلوِي أحدٌ على أحد، وقال الشاعر فيه:

إنْ صاح يوماً حسِبتَ الصَّخرَ منحدِراً والرِّيحَ عاصفةً والموجَ يلتطمُ[2]

وكان شبيب في الديوان فرض له حين أدرك. ثم إنه تنسك وارتدع، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ إلى قوله: ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾، فقال: ما أغفل شبيب عما خلق له وعما يراد به، فأعجب أباه ما رأى من حاله"[3].

لم يكن شبيب هو القائد الأوحد لجماعته، بل كان هناك قائد آخر تغنى المؤرخون بشجاعته وفروسيته، ولم يكن رجلا، بل كانت الغزالة امرأة شبيب نفسه. ولم تكن الغزالة وحيدة بل كانت معها أم شبيب تشاركها القتال. وقد استطاعت الغزالة أن

---

(١) البلاذري، احمد بن يحيى، انساب الأشراف، ج٣، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٦

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج١، ط١، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠١، ص٤١.

(٣) البلاذري، انساب الأشراف، ج٣، ص٢٧.

تفعل ما عجز عنه أقوى المتمردين على السلطة الأموية، وهو تحدي الحجاج بن يوسف الثقفي.

لقد نذرت الغزالة بأن تصلي في مسجد الحجاج في الكوفة، وهي عاصمة عدوها. وبالفعل فقد دخل شبيب وأمه وزوجته غَزَالة الكوفَةَ عند الصباح، وقد كانت غزالة نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران، فأتوا الجامع في سبعين رجلاً، فصلوا به الغَدَاةَ، وخرجت غزالة مما كانت أوجبته على نفسها.

فقال الناس بالكوفة في تلك السنة:

وفَّت الغزالة نَذْرَها ... يارَبِّ لا تغفر لها

وكانت الغزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكذلك أم شبيب[1]، ولم يستطع الحجاج الصمود أمامها فهرب الحجاج منها، فعيَّره بعض الناس بقوله:

أسد علي وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر[2]

وفي رواية أخرى أن غزالة الحرورية لما دخلت على الحجاج هي وشبيب الكوفة تحصن منها وأغلق عليه قصره فكتب إليه عمران بن حطان، وقد كان الحجاج لج في طلبه قال:

أسدٌ علي وفي الحروب نعامةٌ ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك في جناحي طائر

صدعت غزالة قلبه بفوارسٍ ... تركت مدابره كأمس الدابر[3]

---

(١) المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، ج١، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩١، ص٤٠٩.

(٢) الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان، تاريخ الإسلام، تحقيق بشار عواد معروف، ج٢، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٥٢.

(٣) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق الأستاذ علي عبد مهنا والأستاذ سمير جابر، ج٥، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٤.

واستمرت الغزالة في القتال جانب زوجها حتى سقطت قتيلة قتلها فروة بن الدفان الكلبي[1].

ولم تكن الغزالة هي الوحيدة المقاتلة في فرقة الشبيبية، فهناك جهيزة أو جهبرة وهي أم شبيب نفسه وكانت جميلة، وكانت من أشجع النساء، تقاتل مع ابنها في الحروب[2].

ورجوعا لشبيب فقد كان تواقا للخروج ضد السلطة الأموية، ولربما أكثر من صالح بن مسرح نفسه.

وصلت دعوة صالح إلى شبيب، فأرسل كتابا له مع رجل يدعى المحلل بن وائل اليشكري يقول به:" أما بعد فقد علمت أنك كنت أردت الشخوص وقد كنت دعوتني إلى ذلك فاستجبت لك فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنت شيخ المسلمين ولن نعدل بك منا أحدا وإن أردت تأخير ذلك اليوم أعلمتني فإن الآجال غادية ورائحة ولا آمن أن تختر منى المنية ولما أجاهد الظالمين فياله غبنا ويا له فضلا متروكا جعلنا الله وإياك ممن يريد بعمله الله ورضوانه والنظر إلى وجهه ومرافقة الصالحين في دار السلام والسلام عليك"[3].

ونجد هنا الإصرار لدى شبيب في الخروج والقتال، حتى إنه يخشى الموت قبل أن يحظى بفرصة قتال السلطة.

وبهذا الكتاب اعتراف بزعامة صالح بن مسرح فهو كما يقول شبيب (شيخ المسلمين).

وتوضح الروايات أن صالحا كان ينتظر كتاب شبيب على أحر من الجمر، فيرد عليه: "أما بعد فقد كان كتابك وخبرك أبطأ عنى حتى أهمني ذلك، ثم إن أمراء من المسلمين نبأني بنبأ مخرجك ومقدمك فنحمد الله على قضاء ربنا وقد قدم على رسولك بكتابك

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٤٥٤./ اليافعي، أبو محمد عبد الله بن اسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج١، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ص٧١.

(٢) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق مكتب تحقيق التراث في دار التراث العربي، ج٩، دار التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص٢٦.

(٣) الطبري، المصدر نفسه، ص٥٢./ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين علي بن محمد، الكامل في التاريخ، تحقيق المستشرق كارلوس يوهنس تورنبرغ ومجموعة من العلماء، ج٢، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢، ص٢٨٧./ الجوزي، المنتظم، ج٢،ص٢٦٩.

فكل ما فيه قد فهمته ونحن في جهاز واستعداد للخروج ولم يمنعني من الخروج إلا انتظارك فأقبل إلينا ثم اخرج بنا متى ما أحببت فإنك ممن لا يستغنى عن رأيه ولا تقضى دونه الأمور والسلام عليك"[1].

قد لا نبالغ إذا قلنا بأننا نستشعر السعادة في رد صالح بن مسرح على شبيب بن يزيد، وكيف لا يكون؟، وشبيب من فرسان العرب المعدودين، واسمه ينشر الذعر في قلب من يواجهه.

وهذا كان واضحا في نهاية كتاب صالح. فهو لا يستطيع أن يستغني عن شبيب أو أن يقضي أمرا من دونه، وكان صالح قد حج مع شبيب بن يزيد سنة خمس وسبعين للهجرة[2] وما إن وصل كتاب صالح إلى شبيب حتى دعا أصحاب ومنهم: أخوه مصاد بن يزيد بن نعيم الشيباني والمحلل بن وائل اليشكري وغيرهما، وخرج بهم حتى قدم على صالح بدارا، فلما لقيه قال: اخرج بنا رحمك الله، فوالله ما تزداد السنة إلا دروساً ولا يزداد المجرمون إلا طغياناً"[3]، فقال له صالح:" إن الحكيم السعيد إذا سمع الحق نور الله قلبه وجلا العمى عن بصره[4].

وهناك رواية أخرى تشير إلى أن لقاء صالح بن مسرح وشبيب بن يزيد كان بطريقة أخرى ذلك أن شبيباً حج فأتى الكوفة فنزل على القعقاع بن شور الذهلي في بدأته فبره وأكرمه، ثم سار فلما قضى حجته وصار بالربذة أيدع به وانقطع بقوم معه أيضاً فمرت بهم هند بنت أسماء بن خارجة الفزاري فقاموا إليها فسألوها فأمرت لهم بزاد وحملان. ثم أن شبيباً قدم الكوفة فجعل يسأل عن أهل العبادة والصيام فدل على صالح بن مسرح، فسمع منه وقبل قوله ومضى شبيب بعد أن لقي صالحاً إلى الموصل، وسار صالح يريد نصيبين للقاء أصحاب له هناك، ثم أتى دارا ومضى شبيب إلى عبد الملك بن مروان وقد كان اسمه سقط من الديوان لكثرة غيبته وتخلفه عن الاعتراض من العراض فحلق على اسمه فكلم الناس عبد الملك في الفك عن اسمه وإدرار أرزاقه عليه فأبى وقال إن

---

(١) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ص٥٢./ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٨٨./ الجوزي، المصدر نفسه، ص٢٦٩.
(٢) الجوزي، المصدر نفسه، ص٢٦٥.
(٣) ابن الأثير، مصدر سابق، ص٢٨٩.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٦.

بكر بن وائل وبني تميم حيان كثير شرهما وما أحب أن يكثروا بهذه البلاد. فأخبر شبيب بقول عبد الملك فقال: والله لأسوأنه، فأبلغوه عني فله مني يوم أرونان"[1].

وتؤكد هذه الرواية رواية أخرى يرويها الهيثم بن عدي: "كان بنو مروان لا يفرضون لبكر ولا تميم بالشام فخرج شبيب يطلب الفريضة"[2]. وما حصل بعد ذلك يتفق مع الرواية السابقة في أن شبيبا لم يستطع تحصيل العطاء من الأمويين.

لم تغير هاتان الروايتان الكثير في الأحداث التاريخية، فإذا نظرنا إلى الروايات التاريخية المتعددة بوجهة نظر براجماتية (منفعية)، فان ما يهمنا هو لقاء صالح وشبيب واتفاقهما على هدف واحد وهو الثورة على الظلم رغم أن الروايتين الأخيرتين حملتا لنا كذلك دافعا شخصيا لشبيب، وهو إسقاط اسمه من العطاء من قبل السلطة، ونتيجة لذلك فهو يتوعد عبد الملك بن مروان رأس السلطة الأموية بيوم أَرْوَنَانْ أي (يوم شديد).

فيجتمع صالح وشبيب وأصحابهما لاتخاذ قرار الخروج، وهنا يحتفظ لنا المؤرخون برواية على لسان شاهد عيان حضر معهم الاجتماع وهو فروة بن لقيط الأزدي الذي يقول: "والله إني لمع شبيب بالمدائن إذ حدثنا عن مخرجهم قال لما هممنا بالخروج اجتمعنا إلى صالح بن مسرح ليلة خرج فكان رأيي استعراض الناس لما رأيت من المنكر والعدوان والفساد في الأرض.

فقمت إليه فقلت يا أمير المؤمنين كيف ترى في السيرة في هؤلاء الظلمة أنقتلهم قبل الدعاء أم ندعوهم قبل القتال؟ وسأخبرك برأيي فيهم قبل أن تخبرني فيهم برأيك، أما أنا فأرى أن نقتل كل من لا يرى رأينا قريبا كان أو بعيدا فانا نخرج على قوم غاوين طاغين باغين قد تركوا أمر الله واستحوذ عليهم الشيطان"[3].

والمقصود بالاستعراض هنا قتل مخالفيهم في الرأي، ولكن اشد ما نلاحظه هنا هو تسمية صالح بأمير المؤمنين، وهذا يوضح لنا مدى المكانة التي كان يتمتع بها بين أصحابه.

يرى فروة بن لقيط الأزدي بأنهم في دار كفر، وهذا يعني أنهم يقاتلون كفارا. وهذا الأمر لا يحتاج إلى سؤال أو مناقشة أو دعاء، فالأمر واضح بالنسبة لهم.

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥.
(٣) تاريخ الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٦.

ويرد صالح على ذلك بشخصية المصلح، فهو أبعد عن سفك الدماء فيقول: "لا بل ندعوهم فلعمري لا يجيبك إلا من يرى رأيك وليقاتلنك من يزري عليك والدعاء أقطع لحجتهم وأبلغ في الحجة عليهم"[1]. فيتساءل فروة عن المكسب والغنيمة فيقول: "فكيف ترى فيمن قاتلنا فظفرنا به، ما تقول في دمائهم وأموالهم ؟"[2]. فيرد عليه صالح: "إن قتلنا وغنمنا فلنا، وإن تجاوزنا وعفونا فموسع علينا ولنا"[3].

وهناك رواية أخرى تشير أن رجلا آخر اسمه شبيب بن صالح (وهو غير شبيب بن يزيد) قال: "أرى أن نستعرض الناس فإن الكفر قد علا وإن الظلم قد فشا. فقال صالح: بل ندعوهم فإن الدعاء أقطع للحجة، ولا نريد أن نعيب على قوم أعمالاً ندخل فيها، وكان رأي صالح البسط بعد الدعاء"[4].

من هنا يتضح لنا المبادئ التي حاول صالح بن مسرح فرضها على جماعته، فهم جماعة فرض عليها الجهاد، وتخليص الأمة الإسلامية من الظلم وجور الولاة. ولكن صالحا كان قد شهد الحركات الدموية للخوارج. وتطبيقهم (الاستعراض) وهو قتل مخالفيهم، والعنف الذي أصبح صفة ملازمة في التاريخ. فحاول تغيير هذا الطابع، فخروجهم زهد في الحياة، وإمكانية فتح المجال للنقاش مع الآخرين، وهذا الذي لم يكن موجودا في الحركات الخارجية السابقة.

خروج صالح بن مسرح

تشير الروايات التاريخية أن العدد الذي اجتمع لدى صالح وشبيب كان مائة وعشرة أنفس أو مائة وعشرين[5]. وكان خروج صالح في أرض جوخى وهي أرض مقدسة لدى الخوارج. ترجع قداستها إلى المحكمة الأولى من الخوارج عندما حدثت المعركة المشهورة في النهروان بالقرب منها، وذلك أن المحكمة الأولى انحازوا إلى منطقة

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٦.
(٢) المصدر نفسه،ج٥، ص٥٦.
(٣) المصدر نفسه،ج٥، ص٥٦.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٣، ص٢٦.
(٥) العصامي، ، النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٢، ص١٢٧./ تاريخ الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٦.
/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٨٧.

الحروراء بعد رفضهم التحكيم والذي أشعل فتيل المعركة هو قتل الخوارج لعبد الله بن الخباب بن الأرت إذ وجدوه وسألوه عن حديث سمعه أبوه من الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال: " تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه، يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً. قالوا: لهذا الحديث سألناك، فما تقول في أبي بكر وعمر؟ فأثنى عليهما خيراً. قالوا: ما تقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها؟ قال: إنه كان محقاً في أولها، وفي آخرها. قالوا: فما تقول في علي قبل التحكيم. وبعده؟. قال: إنه أعلم بالله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة. فقالوا: إنك تتبع الهوى وتوالي الرجال على أسمائها لا على أفعالها، والله لنقتلنك قتلةً ما قتلناها أحداً"[1]. فقتلوه وقتلوا امرأته وهذا كان سبب معركة النهروان الذي انتصر فيها علي بن أبي طالب.

أتى صالح بن مسرح النهروان " فصلى في مصارع أصحابه"[2] وكان محمد بن مروان حاكم الجزيرة وهو جغرافيا اقرب والي أموي إليهم. ويبدو أن خيلا لهذا الوالي قد مرت قريبة من معسكر أصحاب صالح، وكان أغلب معسكره راجلا. وهذا يعكس الطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها الثوار. فرأى صالح أن هذه الخيل ستكون معينا لهم في حربهم. ولكن قبل ذلك كان لابد له من أن يضع نظاما وقواعد لأصحابه فيقول:" اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوما يريدونكم وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضبا لله حيث انتهكت محارمه وعصى في الأرض فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملوا بها فإن كل ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون وإن عظمكم رجالة وهذه دواب لمحمد بن مروان في هذا الرستاق فابدؤا بها فشدوا عليها فاحملوا أرجلكم وتقووا بها على عدوكم"[3].

وبلغ محمد بن مروان خروجهم ولعله استخف بهم فأرسل لهم عدي بن عدي بن عميرة من بني الحارث بن معاوية بن ثور في خمسمائة رجل فأبدى عدي استغرابه من

---

(١) ابن الأثير، المصدر نفسه، ج٢، ص٨٨.
(٢) البلاذري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦.
(٣) الطبري، مصدر سابق، ص٥٧.

هذا العدد القليل، وكأنه يرى أن خمسمائة رجل من رجال محمد بن مروان لا قبل لهم بمواجهة مائة وعشرين رجلا من الخوارج. وهذا يبين لنا السمعة التي اشتهر بها رجال الخوارج كالفروسية والشدة والصلابة في القتال.

فطلب عدي زيادة عدد جيشه بقوله لمحمد بن مروان: "أصلح الله الأمير أتبعثني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة قد خرج معه رجال من ربيعة قد سموا لي كانوا يعازوننا الرجل منهم خير من مائة فارس في خمسمائة رجل قال له فإني أزيدك خمسمائة أخرى فسر إليهم في ألف فسار من حران في ألف رجل"[1].

فسار عدي بألف رجل لمقاتلة الخوارج، ويشير بعض المؤرخين بأن عديا كان متنسكا ويكره سفك الدماء[2]. سار عدي إلى المعركة وهو كاره لها أما من طبيعته المتنسكة أو بسبب خوفه من مقابلة مقاتلين كالخوارج.

وصل عدي وجيشه إلى منطقة يقال لها دوغان "وهي قرية كبيرة بين رأس عين ونصيبين وكانت سوقاً لأهل الجزيرة يجتمع إليها أهلها في كل شهر مرة"[3]. فأرسل عدي رسولا لصالح بن مسرح يقال له زياد بن عبد الله، وعندما تقابل مع صالح قال له: "إن عديا بعثني إليك يسألك أن تخرج من هذا البلد وتأتي بلدا آخر فتقاتل أهله فإن عديا للقائك كاره"[4]. وهنا نرى محاولة عدي في تجنب القتال ولكن كان رد صالح واضحا فهو لم يخرج ليقبل ما قاله عدي فأرسل له يقول: "ارجع إليه فقال له إن كنت ترى رأينا فأرنا من ذلك ما نعرف ثم نحن مدلجون عنك من هذا البلد إلى غيره وإن كنت على رأي الجبابرة وأئمة السوء رَأْيَنَا رَأْيَنَا فإن شئنا بدأنا بك وإن شئنا رحلنا إلى غيرك"[5].

يشير صالح بأنه قد خرج لمقاتلة الجبابرة وأئمة السوء، فإذا كان عديا على رأيهم فلا مناص من قتاله. ولكن عديا كان موظفا في السلطة لا يستطيع فعل ما يرغب بل ما

---

(١) الجوزي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٠.

(٢) البلاذري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧./ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة ومراجعة زهير زكار، ج٣، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨، ص١٦٩.

(٣) الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج٢، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٧٩، ص٢٥٠.

(٤) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٧./ ابن الأثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٩./ الجوزي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٠.

(٥) الطبري، المصدر نفسه، ص٥٧.

يؤمر به فرد على صالح بقوله: "إني والله ما أنا على رأيك ولكني أكره قتالك وقتال غيرك فقاتل غيري"[1].

ويبدو أن صالحا رأى أن القول الأخير لعدي قد أنهى الملاجحة والنقاش، فقام بحجز الرسول وبدأ بالتجهيز للقتال.

المعركة الأولى:

بدأت المواجهة الأولى بين صالح بن مسرح وجيش السلطة، ويبدو أن الحظ قد لعب لصالح الخوارج في هذه **المواجهة الأولى** مما جعل الانتصار لجيش الخوارج مضمونا. أما النقاط التي ساعدت صالح على الانتصار فهي:

١- استهتار محمد بن مروان بهذه الجماعة من الخوارج.

٢- عدم رغبة قائد جيش السلطة الأموية في قتال الخوارج.

٣- سمعة الخوارج من الشدة والشجاعة في القتال فقد عرف «الخوارج» بالشجاعة والإقدام، وبالصراحة في أقوالهم وأعمالهم وكان الموالي أشجع «الخوارج» وأشدهم جسارة، كما أن الملاحظ هو: أن خوارج الكوفة أقوى شكيمة، وأشد مراساً من خوارج البصرة، وقد ذكر الجاحظ للخوارج امتيازات في حروبهم، وهي التالية:

١- صدق الشدة عند أول وهلة.

٢- إنهم يصبرون على طول السرى، بحيث لا يظن أن أحداً يقطع تلك المسافة في ذلك المقدار من الزمان، فيفاجئون عدوهم، وهم غارون، فيوقعون بهم.

٣- إن ضرب المثل بهم واستشهادهم بالقتل يرعب غيرهم.

٤- إنهم لا سلب لهم، ليرغب الجند في لقائهم، أو يثقل حركتهم في التنقل، كما هو الحال في جند غيرهم[2].

وقد فاجأ صالح بن مسرح عدي بن عدي ابن عميرة في سوق ذوغان وهو قائم يصلي الضحى "فلم يشعر إلا والخيل طالعة عليهم فلما بصروا بها تنادوا وجعل صالح شبيبا في

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٧.

كتيبة في ميمنة أصحابه وبعث سويد بن سليم الهندي من بنى شيبان في كتيبة في ميسرة أصحابه ووقف هو في كتيبة في القلب"[1].

ولم تستمر المعركة طويلا، فقد فاجأ هجوم الخوارج رجال عدي فانتصر صالح بن مسرح انتصارا باهرا وقام بنهب معسكرهم. فقد "حمل عليهم شبيب وهو على ميمنة صالح، وسويد بن سليم وهو على ميسرته، فانهزموا، وأتى عدي بدابته فركبها، وانهزم. وجاء صالح فنزل في معسكره، وأخذ ما فيه"[2].

لم تكن هذه المعركة من المعارك الصعبة بالنسبة للخوارج لما ذكرناه من الأسباب السابقة بالإضافة إلى عناصر قيادية لها مكانتها في تاريخ الفروسية كالقائد شبيب بن يزيد وغيره فضلا أن الملاحظ على مجموعة صالح بن مسرح كانت تميل على الأغلب إلى قبيلة بني شيبان، وهذا قد يكون شكل نوعا من التجانس في هذه الجماعة الخارجية.

لم يستطع عدي الصمود في وجه صالح وجيشه فهرب إلى الوالي محمد بن مروان. وعندما اخبره عما حصل غضب الوالي الأموي، وقد يكون قد تفطن لخطئه منذ البداية، عندما لم يسمع لعدي في إرسال جيش كبير وان لا يستهتر بالخوارج رغم قلة عددهم.

لم يرسل محمد بن مروان هذه المرة جيشا واحدا بل أرسل جيشين فقد " دعا خالد بن جزء السلمي فبعثه في ألف وخمسمائة ودعا الحارث بن جعونة من بني ربيعة بن عامر بن صعصعة فبعثه في ألف وخمسمائة ودعاهما فقال اخرجا إلى هذه الخارجة القليلة الخبيثة وعجلا الخروج وأغذا السير فأيكما سبق فهو الأمير على صاحبه"[3].

سار القائدان لمواجهة صالح وقد وجعلا يسألان عن صالح بن مسرح فيقال لهما" إنه توجه نحو آمد فأتبعاه حتى انتهيا إليه وقد نزل على أهل آمد فنزلا ليلا فخندقا وأنهيا إليه وهما متساندان كل واحد منهما في أصحابه على حدته"[4].

---

(١) القلقشندي، نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٦، ص٢٠.
(٢) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨./ ابن الأثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٩./ ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٩.
(٣) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨./ ابن الأثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٩.
(٤) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨.

لم يبق صالح في مكانه بل انتقل إلى مدينة آمد "وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكراً"[1]، وفي هذه المدينة كان على صالح أن يواجه الامتحان الصعب. وهو لقاء هذين الجيشين، وبأعداد مضاعفة مقارنة بعدد الجيش الذي التقاه في دوغان.

المواجهة الثانية:

في مواجهة هذين الجيشين اللذين لم يكونا في مكان واحد، اضطر صالح بن مسرح أن يقسم جماعته إلى شطر أرسله لمقابلة الحارث بن جعونة العامري ووضع شبيب بن يزيد قائدا له، وأبقى القسم الآخر من جماعته تحت قيادته في مواجهة خالد بن جزء السلمي.

حدثت المواجهة بين جيش صالح وجيش خالد بن جزء السلمي، ويصف لنا المعركة أحد جنود صالح كشاهد عيان فيقول:" انتهوا إلينا في أول وقت العصر فصلى بنا صالح العصر ثم عبأنا لهم فاقتتلنا كأشد قتال اقتتله قوم قط وجعلنا والله نرى الظفر يحمل الرجل منا على العشرة منهم فيهزمهم وعلى العشرين فكذلك وجعلت خيلهم لا تثبت لخيلنا * فلما رأى أميراهم ذلك ترجلا وأمرا جل من معهما فترجل فعند ذلك جعلنا لا نقدر منهم على الذي نريد إذا حملنا عليهم استقبلتنا رجالتهم بالرماح ونضحتنا رماتهم بالنبل وخيلهم تطاردنا في خلال ذلك فقاتلناهم إلى المساء حتى حال الليل بيننا وبينهم وقد أفشوا فينا الجراحة وأفشيناها فيهم، ووالله ما أمسينا حتى كرهناهم وكرهونا وقد قتلوا منا نحوا من ثلاثين رجلا وقتلنا منهم أكثر من سبعين فوقفنا مقابلهم ما يقدمون علينا وما نقدم عليهم فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم ورجعنا إلى عسكرنا فصلينا وتروحنا وأكلنا من الكسر"[2].

يبدو من خلال كلام ناقل حدث المواجهة، أن الجيشين الأمويين كانا قد اتحدا قبل مواجهة الخوارج. ونلاحظ من خلال هذا الكلام أن الخوارج قد شهدوا يوما عصيبا في القتال. وأنهم تفوقوا فرديا على أعدائهم ولكن الأميرين الأمويين أمرا رجالهم بترك خيولهم والثبات على أقدامهم بعد توزيع رماة الرماح والنبال. فتغير مسار المعركة

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٨٠.
(٢) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨.

فالجندي الذي كان يقاتل في سبيل قائده أصبح يقاتل للدفاع عن نفسه وهذا ما جعله أشد في القتال. وانتهى اليوم الأول صعبا على الفريقين، إذ بلغت خسائر الخوارج ثلاثين رجلا في حين أن خسائر الجيش الأموي بلغت سبعين. ولكن الخسارة تصبح واضحة بشكل أكبر لدى الخوارج لقلة عددهم. مع أن بعض المؤرخين يقلب هذه الخسائر فيقول: "أن صالحا وجه شبيبا في الباقي إلى الحارث بن جعونة، فاقتتل الناس قتالا شديدا إلى الليل، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن الآخر، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين"[1].

وفي هذا الموقف غير المسبوق على صالح كان لا بد له من الاستشارة، فدعا أصحابه واستشارهم في ماذا يفعلون فقال صالح لهم: "يا أخلائى ماذا ترون فقال شبيب أرى أنا قد لقينا هؤلاء القوم فقاتلناهم وقد اعتصموا بخندقهم فلا أرى أن نقيم عليهم فقال صالح وأنا أرى ذلك فخرجوا من تحت ليلتهم سائرين فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة ثم دخلوا أرض الموصل فساروا فيها حتى قطعوها ومضوا حتى قطعوا الدسكرة"[2].

في هذا الموقف العصيب استشار صالح أصحابه، ومن أفضل من شبيب ليستشيره في أمور الحرب والقتال؟. فرأى شبيب تركهم والانتقال لمكان آخر، ولم يناقشه صالح في رأيه، بل انطلقوا خلال ستار الليل حتى قطعوا الجزيرة والموصل والدسكرة، وهي "مدينة فيما بين بغداد وبلاد خراسان، وهي مدينة كبيرة بها قصر من بناء الأكاسرة له سور مشرف، له باب واحد مما يلي المغرب، وليس داخله بناء والطريق من الدسكرة إلى جلولاء بين جبال ورمال ونخيل"[3].

وكان والي العراق آنذاك الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي شهر بصلابته وقسوته في تعامله مع أعداء السلطة الأموية. ولم يكن صالح بن مسرح غريبا عن الحجاج فتروي المصادر التاريخية أنه في إحدى السنوات حج صالح ومعه شبيب وبعض الأصحاب وفي نفس السنة حج عبد الملك بن مروان "فهم شبيب أن يفتك به فبلغه ذلك من خبرهم،

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص٢٠.
(٢) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨.
(٣) الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج١، تحقيق احسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٤٤.

فكتب إلى الحجاج بن يوسف بعد انصرافه يأمره بطلبهم، وكان شيخاً صالحاً يأتي الكوفة فيقيم بها الشهر ونحوه فيلقى أصحابه ويعد ما يحتاج إليه، فلما طلبه الحجاج نبت به الكوفة فتركها"[1]. والمقصود هنا بالشيخ الصالح هو صالح بن مسرح نفسه.

"فلما بلغ ذلك الحجاج سرح إليهم الحارث بن عميرة بن ذى المشعار الهمداني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة ألف من المقاتلة الأولى وألفين من الفرض"[2]. وهناك رواية أخرى تشير أن الذي أرسل الحارث بن عميرة هو بشر بن مروان " بأن بشر بن مروان وجه الحارث بن عميرة بن مالك بن حمزة بن أنفع بن زبيب بن شراحيل، وكان يقال لحمزة: ذو المسعار الهمداني في ثلاثة آلاف من أهل الكوفة، وصالح في تسعين، ويقال بل وافاه في أربعة آلاف من مقاتلة أهل الكوفة وستة آلاف من الفرض"[3].

مقتل صالح بن مسرح

لا خلاف في أن هذا الجيش أكبر جيش واجهه صالح وأصحابه، خاصة وان كل جيشه لا يتعدى التسعين رجلا، "فخرج صالح بن مسرح نحو جلولاء وخانقين وأتبعه الحارث بن عميرة حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبج من أرض الموصل على تخوم ما بينها وبين أرض جوخى وصالح يومئذ في تسعين رجلا فعبى الحارث بن عميرة يومئذ أصحابه وجعل على ميمنته أبا الرواع الشاكرى وعلى ميسرته الزبير بن الأروح التميمي ثم شد عليهم وذلك بعد العصر وقد جعل أصحابه ثلاثة كراديس فهو في كردوس وشبيب في كردوس في ميمنته وسويد بن سليم في كردوس في الميسرة في كل كردوس منهم ثلاثون رجلا"[4].

رأى صالح بأنه لا قبل له بمواجهة هذا الجيش الكبير، فانسحب بأصحابه عبر منطقة جلولاء وخانقين حتى وصل إلى الموصل في قرية مدبج. وهي قريبة من أرض جوخى أرض الخوارج المقدسة. وبدأ كلا القائدين بترتيب جيشه، ولم يجد صالح إلا أن يقسم هذا

---

(١) ابن الأثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٨.
(٢) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٨.
(٣) البلاذري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦.
(٤) الطبري، مصدر سابق، ج٥، ص٥٩./ البلاذري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦.

العدد القليل إلى ثلاثة أقسام، كل قسم ثلاثين رجلا، ترأس قسم وشبيب قسم وسويد بن سليم القسم الأخير.

كانت النتيجة محسومة في هذه المعركة غير المتكافئة، فقد "شد عليهم الحارث بن عميرة في جماعة أصحابه انكشف سويد بن سليم وثبت صالح بن مسرح فقتل وضارب شبيب حتى صرع عن فرسه فوقع في رجالة فشد عليهم فانكشفوا فجاء حتى انتهى إلى موقف صالح بن مسرح فأصابه قتيلا"[1].

ولم تكن المعركة سهلة على جيش الحارث فقد " قتل للحارث ابنان، وكان الذي طعن صالحاً فقتله: الأشعث ين الحارث بن عميرة"[2].

وهناك رواية تقول:" إن صالحاً جرح جراحات مات منها في ليلته، وأمر أن يبايع شبيب بعده واستخلفه"[3].

كان واقعيا أن تنتهي المعركة بانتصار الجيش الأموي، وبقي صالح بن مسرح صامدا حتى قتل، أما شبيب فقد وقع عن جواده، ولكن فارسا من نوع شبيب كان مرعبا سواء كان فارسا أو راجلا. فرجع يشق الصفوف حتى يطمئن على سيده، وبالفعل فقد وصل إلى مكانه وإذا به ميتا، فتحركت به غريزة القيادة والرغبة في النجاة له ولمن بقي من أصحابه.

فنادى: يا معشر المسلمين فلاذوا به فقال لأصحابه: "ليعجل كل واحد منكم ظهره إلى ظهر صاحبه وليطاعن عدوه إذا أقدم عليه حتى ندخل هذا الحصن ونرى رأينا ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلا بشبيب"[4].

قد يكون فقد عشرين رجلا في هذه المواجهة رقم ضئيل عموما، ولكن هذا الرقم يصل إلى نسبة الربع في جيش الخوارج. لذلك ففقدان الربع لا ريب في تركه أثرا واضحا خلال هذه المواجهة، فضلا عن فقدان الخوارج رمزهم المتمثل بصالح بن مسرح.

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ص٦٠./ البلاذري، المصدر نفسه، ص٢٦.
(٢) البلاذري، المصدر نفسه، ص٢٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٢٦.

رأى شبيب أن يحافظ على القلة الباقية معه، فوجد أن الانسحاب هو الأجدى. وكان هناك حصن قريبا من هذه الموقعة فرأى الالتجاء إليه حتى يقررون ماذا يفعلون.

استطاع شبيب إيصال الخوارج إلى الحصن ووضعهم الحارث بن عميرة تحت الحصار، ويبدو أن الحارث كان متعجلا في إبادة الخوارج فقال لجيشه: "احرقوا الباب فإذا صار جمرا فدعوه فإنهم لا يقدرون على أن يخرجوا منه حتى نصبحهم فنقتلهم"[1]. وكأن الحارث بن عميرة يعلم قدرة الخوارج على القتال ليلا، إذ أن الخوارج مشهورون بالقتال ليلا وكان يسمى بالبيات والعرب تقول: "وبَيَّت الأمرَ تبييتاً، إذا عملته بالليل. وكل كلام لَخَّصْتَه أو رأي أجَّلْتَه بالليل فهو مُبَيَّت. وماء بَيوت، إذا بات ليلةً في إنائه. وبَيَّتُّ القومَ، إذا أوقعت بهم ليلاً. والمصدر التَّبييت، والاسم البَيات. وفي التنزيل: ﴿أفَأمنَ أهلُ القُرى أن يأتِيَهُم بَأسُنا بَياتاً وهم نائمون﴾[2]. فحاول الحارث بن عميرة قطع طريق الخروج عليهم، بأن قام بإحراق باب الحصن حتى أصبح جمرا وهذا سيجبر الخوارج على البقاء في الحصن طوال الليل، وعند الصباح يطبق عليهم الحارث بن عميره بجيشه ويقتلهم.

وعندما حدث ما أراد الحارث بن عميرة، بقي الفريقان يراقبان بعضهما وبدأت المحاورات والملاسنات بينهما. فيقول بعض من جيش الحارث تحركهم لغة النصر: "يا بني الزواني ألم يخزكم الله"[3]، وقد تكلمنا سابقا عن تركيبة الخوارج والتي استمدت من قبائل الصحراء العربية، هذا الأعرابي الذي قد يتجاوز كل شيء ما عدا قيمه الاجتماعية، فلم يناقش أعدائه في كفرهم وإيمانهم أو في قتالهم وعدم قتالهم بل كان ما علق في مسامعهم وصفهم بأبناء زواني، فقالوا: "يا فساق نعم تقاتلوننا لقتالنا إياكم إذ عماكم الله عن الحق الذي نحن عليه فما عذركم عند الله في الفرى على أمهاتنا"[4].

يقف بعض من عقلاء جيش الحارث ويقول: "إنما هذا من قول شباب فينا سفهاء والله ما يعجبنا قولهم ولا نستحله"[5].

---

(١) ابن الأثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٨.
(٢) ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، ج١، تحقيق رمزي بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧، ص١٠١.
(٣) الطبري، المصدر نفسه، ص٦٠
(٤) البلاذري، المصدر نفسه، ص٢٦.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٦.

يستشير شبيب أصحابه في هذا الموقف إذ أنه يشعر بالخطر إذا بقوا حتى الصباح فيقول: "يا هؤلاء ما تنتظرون فوالله لئن صبحكم هؤلاء غدوة إنه لهلاككم"[1]، فيرد أصحابه بأنهم سيتبعون أمره ويفعلون ما يرى فيقول: "إن الليل أخفى للويل بايعوني أو من شئتم منكم ثم اخرجوا بنا حتى نشد عليهم في عسكرهم فإنهم لذلك منكم آمنون وأنا أرجو أن ينصركم الله عليهم"[2]. ويتضح لنا أن جماعة الخوارج إلى تلك اللحظة في الحصار لم يكونوا قد بايعوا شبيبا، ولذلك طالبهم شبيب ببيعة كاملة أو جزئية له حتى يستطيع قيادتهم في الليل لمهاجمة معسكر الحارث بن عميرة.

تمت مبايعة شبيب وأصبح الخوارج تحت زعامته، وجهزهم للخروج من الحصن في ستار الليل، ولكن كان لا بد لهم تخطي الباب الذي كان قد أصبح جمرا بفعل النيران التي أوقدها جيش الحارث فأتى الخوارج باللبود وهي نوع من البسط وبلوها بالماء والقوها على الجمر ثم عبروا عليها، ولم يشعر جيش الحارث بن عميرة إلا بهجمات الخوارج فحاول الحارث الثبات لكنه صرع فأخذوه أصحابه، وكانت هذه المفاجأة لصالح الخوارج فانتصروا انتصارا كاسحا وقتلوا من جيش الحارث مقتلة عظيمة واستولوا على معسكرهم[3]، أما جيش الحارث فقد انسحب نحو المدائن.

وبدأ شبيب في جمع الأعداء بعد هذا الانتصار، وقد ساعده في ذلك وجود العديد من ذوي الثارات وهذا يتضح عندما لقي سلامة بن سنان التميمي وهو من تميم شيبان في حين أن اخاه فضالة كان قد "خرج قبل صالح بن مسرح في ثمانية عشر رجل ونزل على ماء لبنى عنزة فقتلوهم وأتوا برؤوسهم إلى عبد الملك يتقربون له بهم فلما دعا شبيب سلامة إلى الخروج شرط عليه أن ينتخب ثلاثين فارسا ويسير بهم إلى عنزة فيثأر منهم بأخيه فقبل شرطه وسار إلى عنزة فأثخن فيهم وجعل يقتل الحلة بعد الحلة وفي ذلك يقول شعرا:

فصحبتهم قبل الشروق بفتيةٍ ... مساعير لا كشف اللقاء ولا عزل

وليست دماء القدميين بالتى ... توازى دماء الحى شيبان فى القتل

---

(١) الطبري، المصدر نفسه، ص٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٠.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٠.

لعـــل جيـــادي أن تعـــود علـــيهم فتنـــزلهم دار الـــصغار مـــع الـــذل"[3]

وهكذا انتهت زعامة صالح بن مسرح ولكن لم تنته حركته، والتي تابعها شبيب بن يزيد من بعده كأقوى حركة تمرد، عانى الحجاج بن يوسف الثقفي ومن ورائه السلطة الأموية في إخمادها.

صالح بن مسرح في الميزان:

تجمع الروايات التاريخية على المكانة الدينية التي كان يتمتع صالح بن مسرح بين أصحابه، وأصبحت طريقته في ممارسة الفروض مشهورة فيقول أحدهم: "أخذت على صالح بن مسرح في الصلاة وهو يقرأ وعيناه تسكبان دموعا"[2]، كما أنه كان من الزهاد[3].

وقد كان معلما في أمور الدين "فقد كان ناسكاً عابداً، وله أصحاب يقرئهم القرآن، ويفقههم ويقص عليهم ويقدم الكوفة فيقيم بها الشهر والشهرين، وكان بأرض الموصل، وله كلام مستحسن"[4].

لم يكن موت صالح بن مسرح قد مر مرورا عابرا، فقد ترك موته أثرا بالغا في نفوس أصحابه، فتعددت القصائد في رثائه فيقول احد الشعراء:

أقـــول لنفـــسي فـــي الخـــلاء ألومهـــا هبلـــت دعينـــي قـــد مللـــت مـــن العمـــر

ومـــن عـــشية لا خيـــر فيـــها دنيئـــة مذممـــة عنـــد الكـــرام ذوي الـــصبر

ســـأركب حوبـــاء الأمـــور لعلنـــي ألاقـــي الـــذي لاقـــى المحـــرق فـــي القـــصر

ومـــا كـــان غمـــرا صـــالح غيـــر أنـــه رمتـــه صـــروف الـــدهر مـــن حيـــث لا يـــدري"[5]

ويقول الجعد بن ضمام الدوسي في رثاء صالح:

أيـــا عـــين فـــابكي صـــالحا إن صـــالحا شـــرى نفـــسه لله يبغـــي بهـــا الخلـــدا

وقـــد كـــان ذا رأى مبـــين ورأفـــة صـــفوحا عـــن العـــوراء يـــدفعها عمـــدا

---

(١) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٠.

(٢) الدارقطني، علي بن عمر بن احمد، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، ج١، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، ط١، دار طيبة الرياض، ١٩٨٥، ص٣٦٨.

(٣) ابن ماكولا، مصدر سابق، ج٢، ص٧٣./ البردي، يوسف جمال الدين، النجوم الزاهرة ، ج١، ص٧٧.

(٤) الجوزي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٠.

(٥) البلاذري، مصدر سابق، ج٧، ص ٨٧.

وقد كان في الحرب العوان يشبها ... ويسعرها بالخيل محبوكة جردا[1]

ويقول المنهال الشيباني البصري في رثائه:"

أمنهال إن الموت غاد ورائح ... ولا خير في الدنيا وقد مات صالح

إذا قلت أنسى صالحا عاد ذكره ... جديدا لما انضمت عليه الجوانح

لئن كان أمسى صالح ثل عرشه ... لقد كان لا تخشى عليه الفضائح"[2]

وفي معركة صالح بن مسرح ومقتله في مواجهته مع الحارث بن عميرة يقول أعشى همدان، وكان وهو عبد الرحمن بن بسطام، أحد بني مالك بن حاشد بن جعشم بن خيران بن نوف بن همدان:"

إلى ابن عميرة تحدي بنا ... على أينها القلص الضمر

ولابن المسرح في جحفل ... دلفت وفرسانه حضر

شبيب وقعنبهم والبطين ... وعمرو وفارسهم أبجر

ليوث عرين هم ما هم ... إذا حكموا وإذا كبروا

فلم ير تحت ظلال السيو ... ف مثلك محتسباً أصبر

ولا مثل أشبالك الضاريا ... ت ولا مثل معشركم معشر"[3]

وقد احتفظ صالح بمكانته لدى البعض من الخوارج حتى بعد موته فيقال إنه مات بالموصل "فأوصى إلى شبيب وقبر صالح هنالك لا يخرج أحد منهم إلا حلق رأسه عند قبره"[4].

من خلال ما سبق نجد أن ما يميز صالح بن مسرح هو شخصيته بغض النظر عما طرحه أثناء خروجه، فهو لم يخرج عن الإطار الفكري للخوارج، فقد كان يترحم على الخليفتين أبي بكر وعمر بن الخطاب ويهاجم عثمان وعلي ويخرج عليهم، حتى إن

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص ٨٧.
(٢) المصدر نفسه،ج٣، ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٦.
(٤) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص٩٥.

كتاب الفرق لم يروا في قوله ما يميزه عن الذين سبقوه من الخوارج فيقول أحد كتاب الفرق: "ومن رجال الخوارج ممن لم يذكر أنه خرج ولا له مذهب يعرف به صالح بن مسرح"[1]، ويقول آخر من كتاب الفرق: "ومن الخوارج: أصحاب صالح بن مسرح، ولم يبلغنا عنه أنه أحدث قولاً تميز به عن أصحابه"[2].

لم تتفق الروايات التاريخية على المذهب الذي اعتنقه صالح فالبعض رأى بأن صالح بن مسرح كان يرى رأي الصفرية وهم فرقة من الخوارج[3]. وقد عدّه البعض رأس الصفرية[4].

ولم تكن فرق الخوارج على وفاق فعندما سمع قطري بن الفجاءة وهو احد رؤوس فرقة الأزارقة بخروج شبيب وكان في زمن قدوم الحجاج العراق، فأقام الحجاج سنة لا يعرض لشبيب حتى كثف أمره واشتدت شوكته. وبلغ قطري بن الفجاءة خروج شبيب في أيام الحجاج فقال: "إن الله قد قيض للفاسق أخي ثمود رجلاً من الصفرية سيشجيه ويخزيه، والله ما نبالي في أي الفريقين كان الفتح"[5].

يبدو أن صالح بن مسرح كان له رأي خاص به رغم الروايات السابقة فالبعض أطلق على أصحاب صالح بالصالحية[6]، وهناك رواية تاريخية تدور حول خارجي من بني تميم خرج في زمن المهدي العباسي بأنه يميل إلى مقالة صالح بن مسرح[7].

نجد هنا أن هذا الناسك خط طريقا نظريا حوله إلى ممارسة عملية ثورية، وقد ساعده في ذلك الكاريزمة (الشخصية) الجاذبة لأصحابه، مما جعلهم يقدمون على الموت ويفدونه بحياتهم رغم المصير المحتوم الذي كان ينتظرهم. وكانت ثورة صالح قد تعدت الثورة الفكرية الدينية إلى ثورة اجتماعية واقتصادية ضد ظلم السلطة الأموية في عصرهم.

---

(١) الأشعري، مصدر سابق، ج١، ص٣١.
(٢) الشهرستاني، مصدر سابق، ج١، ص٣٣.
(٣) ابن كثير، مصدر سابق، ج٩، ص١٨.
(٤) ابن قتيبة، المعارف، ص٩٥.
(٥) البلاذري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧.
(٦) الآبي، نثر الدر، ص٤١٠.
(٧) ابن خلدون، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٠.

قائمة المصادر والمراجع

١. الآبي، محمد بن خليفة، إكمال الإكمال، ج٧،ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

٢. الآبي، أبو سعيد منصور بن الحسين، نثر الدر، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٠.

٣. ابن الأثير، علي بن محمد، أسد الغابة، تحقيق مكتب البحوث في الدار، ج١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣.

٤. الأشعري، أبو الحسن، المقالات واختلاف المصلين، ج١، تحقيق هلموت ريتر، ط٣، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٠.

٥. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تحقيق الأستاذ علي عبد مهنا والأستاذ سمير جابر، ج٥، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢.

٦. البلاذري، احمد بن يحيى، انساب الأشراف، ج٣، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦.

٧. ابن تغري البردي، يوسف جمال الدين، النجوم الزاهرة، ج١، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

٨. الجوزي، عبد الرحمن بن علي، المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج٢، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥.

٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج١، ط١، وزارة الثقافة السورية، دمشق، ٢٠٠١.

١٠. الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج٢، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٧٩.

١١. الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، ج١، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

١٢. ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، تاريخ ابن خلدون،تحقيق خليل شحادة ومراجعة زهير زكار، ج٣، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

١٣. ابن خياط، خليفة بن خياط العصفري، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق مصطفى فواز وحكمت فواز، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

١٤. الدارقطني، علي بن عمر بن احمد، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، ج١، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، ط١، دار طيبة الرياض، ١٩٨٥.

١٥. دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، ج١، تحقيق رمزي بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧.

١٦. الذهبي، شمس الدين، تاريخ الإسلام، ج٢، تحقيق عمر تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩.

١٧. الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد، سير أعلام النبلاء، ج٤، تحقيق شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، ط٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.
١٨. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين محمد بن المفضل، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج٢، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، دار صادر، بيروت.
١٩. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، الملل والنحل، تحقيق صدقي جميل، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢.
٢٠. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٣٩.
٢١. العاملي، بهاء الدين بن الحسين، الكشكول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
٢٢. العصامي، عبد الملك بن حسين، النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٢، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.
٢٣. ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١.
٢٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج٩، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥. القلقشندي، أبو العباس احمد بن علي، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٦، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦.
٢٦. ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى، ج٢، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
٢٧. المبرد، محمد بن يزيد أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٢، ط٣، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧.
٢٨. المسعودي، علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق عبد الأمير مهنا، ج١، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩١.
٢٩. اليافعي، أبو محمد عبد الله بن اسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ج١، ط١، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧.
٣٠. إسماعيل محمود، الحركات السرية في الإسلام، ط١،دار الفارابي، بيروت، ١٩٩١.
٣١. حركات، إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر الأموي، ط١، مطبعة فضالة، المغرب، ١٩٩٠.
٣٢. شرف، محمد جلال، نشأة الفكر السياسي وتطوره في الإسلام، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٠
٣٣. عطوان، حسين، الفرق الإسلامية في بلاد الشام في العصر الأموي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠.

* * *